

ابن رشد رائد الفكر العلمي المعاصر

عبد العزيز بنعبد الله

منذ أواخر القرن الخامس الهجري أولى الموحدون عناية فائقة للعلم والعلماء، فكان من نتائج ذلك أن الفكر تحرر بصورة لم يسبق لها نظير بالمغرب. وقد استشهد الدكتور لوكير⁽¹⁾ على هذه الظاهرة الفذة بنبوغ أمثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد الذي هو في نظره أعظم فيلسوف أنجبته الأندلس.

ويظهر خلافاً لذلك - أن علوم الحكمة أو الفلسفة قد تقلص ظلها، بعد ذلك بقرن عندما عمد يعقوب المنصور الموحي إلى تعقب الفلاسفة ومطاردتهم حتى الاضطهاد حيث أناط المنصور بابن زهر مأمورية تعقب الفلاسفة، ثقة به لأنه كان طبيباً غير فيلسوف، واتجه المنصور آنذاك إلى تدوين الأحاديث النبوية وترتيب الجرايات لحفظها فاتجه الناس إليها انجذاباً للمادة، كابن زهر الحفيد أبي بكر محمد بن عبد الملك الذي حفظ صحيح البخاري بالإضافة إلى ثلث شعر العرب والتعمق في الطب. ولم ينسق ابن رشد معهم في ذلك لأن المنصور اعتقله مع أبي جعفر الذهبي، فزاد ذلك الناس رغبة في مصير الفلاسفة. وليس معنى هذا أن ابن رشد لم يكن محدثاً فقيهاً أصولياً ضمن مشاركاته المتعددة، لأن مصنفاته في العلوم الإسلامية تشهد بهذه الضلالة المتنوعة الأطراف، ولكنه أبى إلا أن يظل فيلسوفاً فقيهاً لعدم تنافي المعرفتين،

(1) في كتابه حول تاريخ الطب العربي، ج 2، ص 72.

وبفضل هذا الصمود انتصر الفكر العلمي الحر في عهد المنصور نفسه خاصة عام 595 هـ وهي السنة التي مات فيها ابن رشد فأعاد الأمير الموحدي الخطوة إلى الرجلين (ابن رشد وزميله أبي جعفر) بعد أن انتقل إلى تعقب الأطباء أنفسهم كابن زهر الذي مكث في سجن مراكش عشر سنوات منذ عام 535 هـ حيث صنف كتابه (الاقتصاد) ثم هاجر إلى الأندلس فأدرك مرتبة في الطب جعلت ابن رشد يفضلها على غيره من أهل عصره فاضطر المنصور إلى استقدامه من الأندلس إلى مراكش للمرة الثانية عام 580 هـ حيث توفي في السنة التالية.

والغريب أن المنصور جرؤ على إدراج الأطباء ضمن من تعقبهم من الحكماء، بدعوى أنهم استعانوا بالحكمة والمنطق لاستخدام التحصيل العقلي في تجاربهم العلمية، انطلاقاً من القياسات الطبية. وكان ابن زهر قد استعاض عن التقليد بالمنهج التجريبي الرصين فاستطاع التفوق على سلفه كابن سينا في الممارسات اليومية. وقد أوغل المنصور في هذا الاضطهاد فأرفقه بالنفي إلى الأندلس فكان من حظ ابن رشد الزج به في المجمع اليهودي باليسانة Lucena حيث تفتقت قريحته فبرز البعد الحقيقي لمعارفه كعالم شمولي التكوين. وإذا كان الكندي هو أول فيلسوف ظهر عند العرب، فإن ابن رشد قد أصبح أب الفلاسفة المغاربة والمعلق الأول لأرسطو في أصالة نادرة أبرزها المؤرخ الألماني (ويستنفلد) الذي تتبع الكتب اليونانية العربية أو المنقولة إلى السريانية والآرامية والفارسية، فاستطاع أن يتعرف على مدى العمق والأصالة لدى ثلاثمائة طبيب عربي، أجملهم وأعلام ابن رشد. والمعلق غير المترجم لأن ابن رشد كان أول من تجرأ على شرح فلسفة أرسطر والتعليق عليها أي نقدها. فابن رشد لا يركز على العقل وحده كما يفعل أرسطو في الدلالة على وجود الله مثلاً حيث نهج (ابن سينا) نهجه في «رسالة الطير» وكذلك (ابن طفيل) في «رسالة حي ابن يقظان» وبعدهما «دوفوي» DUFOE في روبنسن دو كروزوي» ROBINSON DE CRUSOE فقد أضاف ابن رشد إلى حجية العلل الأربع Les quatre raisons التي يستشهد بها أرسطو - أي التحصيل العقلي الذي هو أساس الفلسفة - التجربة العلمية التي تدعو

إليها الشريعة دعماً للحقيقة - كما في كتاب «فصل المقال» : لقول الله تعالى : ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ أي لازدواج العقل والعلم كأسيسة وقوام للوصول إلى الحقيقة، وقد استدلل الله في القرآن على وجوده بالعلم المعزز بالعقل حيث قال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والنور طاقة منها الكهرباء التي لم يستكنه العلم الحديث ماهيتها رغم محسوسيتها. فكيف بالذات الإلهية ؟ ولذلك عرف ابن رشد لأول مرة هذه الازدواجية التي شرحها (ابن تيمية) في كتابه : «موافقة العقل الصريح للشرع الصحيح» وهو أي الفصل الصريح ما توصل إليه الفيلسوف الألماني (كانط) KANT بعد قرون في كتابه (نقد العقل المحض) ومن هنا توصل ابن رشد إلى ازدواجية موازية وهي تواكب الفكر والوجدان أو العقلانية والسيكولوجية.

وقبل أن نخلل عطاءات الفلسفة الرشدية نتساءل إلى أي حدّ يمكن أن نعتبر أطباء وفلاسفة الأندلس مغاربة ؟ فهل مجرد مقامهم بالمغرب يسمح بادعاء هذا الانتماء لهم ؟ فقد حاول الإجابة عن هذا التساؤل مستشرقون مرموقون مثل الدكتور رينو⁽²⁾ الذي حاول أن يدلّل على أن للمغرب الحق في تبني أمثال ابن باجة وابن طفيل وابن رشد الذين ساروا في أعقاب ملوك المغرب من إشبيلية أو قرطبة إلى فاس أو مراكش.

والواقع أن تراث المغرب والأندلس متداخل إلى حدّ يصعب التمييز بين عناصره لا سيما وأن الكثير من أطباء وفلاسفة الأندلس لم تنضج ملكتهم ولم تكتمل تجربتهم إلا في ظلال البلاط الموحي بمراكش.

ومهما يكن فإن أهم ظاهرة في الرصيد العلمي لدى ابن رشد أنه جمع بين الطب والفلسفة كأتم ما يكون هذا الجمع فاكتملت عنده النظرة الكونية الشمولية، ولذلك

(2) في كتابه «الطب القديم بالمغرب»، نشره معهد الدروس العليا بالمغرب عدد 1 ص 72.

تجلت رصانة هذه الازدواجية في تراثه أكثر مما تجلت عند ابن سينا، ولعل من أدلة هذا التسامي أن ابن رشد شرح أرجوزة ابن سينا المعروفة بـ (الكاتيكوم) فكان شرحه - حسب ابن زهر الأوسط - أفضل من كتاب (القانون) وقد ترجم الشرح إلى اللاتينية فأصبح من أبرز المراجع في أوروبا خلال العصور الوسطى بل والعصور الحديثة التي سجلت هذا التفوق في إقامة تمثال للفيلسوف المغربي في كلية الطب بمونبيلي.

وقد اقترح ابن رشد في هذا الشرح ما يصفه الأطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الأمراض الرئوية، وقد أشار إلى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية.

ولعل من عوامل تفتق هذا الفكر الشمولي الموسوعي لدى ابن رشد اتقانه للغات العلم في عصره وهي الإغريقية واللاتينية بالإضافة إلى القبطانية. على أن التضلع في هذه اللغات العلمية لم يكن رهينا بطائفة من علماء الأندلس دون أخرى فقد لاحظ ابن حزم في جهمرته وهو من رجال القرن الخامس الهجري أنه لم يعرف ولو رجلين بالأندلس لم يكونا يتقنان هذه اللغات بجانب تعمقهم في علوم لغة الضاد. ومعنى ذلك أن الإشراف على ناصية هذه الألسن العلمية كان شية كل علماء الأندلس مهما تنوعت معارفهم من فقه وأصول وحديث إلى حكمة وطب.

ولعل عودة ابن رشد إلى الأندلس قد أتاحت له حرية أوسع في البحث العلمي وإن كان الأندلس لم تكن آنذاك أقل خضوعا لدار الخلافة بالعدوة الجنوبية، غير أن المحيط الذي اختير له المقام فيه وهو (اليسانة) لم يكن محط تعقيبات المنصور الموحي الذي كان يتحاشى التدخل في التأويلات التلمودية⁽³⁾ والحد من الحريات التي خولها اليهود

(3) التلمود مجموعة تقاليد أحبار اليهود يؤولون بها (قانون موسى) وهو قسمان : (المشنا) أي مدونة التقاليد الشفوية و (الجمارة) وهي التعليقات على (المشنا).

لأنفسهم في مركز اليسانة وهو واقع بين قرطبة ومالقا، اتخذوه كمتدى للثقافة اليهودية ومحور للمعاهد التلمودية. فقد وجد ابن رشد في (اليسانة) إذن مجالا تفتحت فيه عطاءاته العلمية وكان اليهود يمنعون دخول غيرهم (اليسانة)⁽⁴⁾ ولكنهم سمحوا لابن رشد بذلك إعجابا بفلسفته التي نشرها بإيطاليا وفرنسا بعدما أجبروا على الخروج من إسبانيا، وكان أكثر تلامذة ابن رشد - على ما قيل - من اليهود والنصارى وقل من كان يقرأ عليه من المسلمين لرميه بضعف المعتقد. وكان التعليم بالأندلس آنذاك مشتركا بين المسلمين واليهود والنصارى في درس واحد كما وقع في (بياسة) Baeza عام 553 هـ / 1158 م حيث كان عبد الله بن سهل الغرناطي يلقي دروسا مشتركة⁽⁵⁾ وكانت العربية لغة التدريس.

هنالك تتلمذ موسى بن ميمون لابن رشد، وقد ولد عام 530 هـ / 1135 م وتوفي بعد شيخه بست سنوات حيث أصبح داعية للفلسفة الرشدية التي تبلور فيها فهم جديد لفلسفة أرسطو وكان يدعو إلى الفكر الأرسطوطاليسي قبل ابن رشد فيلسوف طليطلي⁽⁶⁾ توفي عام 576 هـ / 1180 م (أي قبل ابن رشد بـ 19 سنة) وقد أمتت الفلسفة الرشدية مزيجا من المدركات العربية والعبرية لنظريات الفيلسوف الإغريقي سادت أوروبا بفضل تبني (اليسانة) لها ودعوة (ابن ميمون) لتعاليمها من منابر الأندلس غربا، ثم مصر شرقا ومعلوم أن طليطلة كانت فيما قبل مهبط رواد العلم من الأوروبيين وقد استنجد (ريموند) أسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتيني وإذ ذاك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية واستقر (جيرار دوكريمون) في طليطلة نصف قرن نقل خلالها من العربية إلى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا أو إغريقيا معربا. ولعل انتشار فلسفة ابن رشد وذيوع صيته بأوروبا قد حدا المنصور

(4) الشريف الإدريسي - (وصف إفريقيا) ص 205 / (مسلو إسبانيا) لدوزي، ج 3 ص 158.

(5) الإحاطة لابن الخطيب، ص 222 / مخطوطة الأسكوريال، عدد 1673.

(6) له دراسة فلسفية بالعربية معروف باسم (العبري) أي الإيمان العلوي (الموسوعة البريطانية، ج 1، ص 60).

إلى استدعائه للعودة إلى المغرب، وكان (موسى بن ميمون) قد هاجر إلى فاس منذ عام 556 هـ / 1160 م (أي قبل وفاة ابن رشد عام 595 هـ بنحو أربعين سنة) حيث سكن مدة خمس سنوات بدار (المجانة) بفاس التي كانت آنذاك مركزاً لأول جامعة هي جامعة (القرويين) التي أسست عام 245 هـ وعرف مقرها بصيت علمي واسع حدا البعض إلى تسميتها (أثينة إفريقية) لأن الكشف العلمية تفتقت بحرية منذ بدأ ازدهار جامعة القرويين في القرن الرابع الهجري حيث انتقل جيرير - على ما قيل - إلى فاس لدراسة الرياضيات ومن خلال ما سمي بالأرقام العربية وقد تولى جيرير البابوية باسم (سلفستر الثاني) عام 999 م والواقع أن مكانة فاس العلمية تزايدت أكثر فأكثر بعد أن قلصت الكنيسة المسيحية عام 589 هـ قانون الأحوال الشخصية لليهود أي عهد المنصور الموحي نفسه ولهذا يمكن القول بأن حركة (المكوك) ظلت موصولة بين (فاس واليسانة) طوال قرون حيث قام الفيلسوف اليهودي سليمان بن يحيى بن جبيرول (أو جبيرون) منذ عام 450 هـ / 1058 م في كل من المركزين - بتدريس الأفلاطونية الحديثة.

وهنا يجب أن نخلل مدى البعد الموسوعي لدى ابن رشد حيث امتاز عن معاصريه بمشاركة خاصة في تعاليم وعلوم مختلفة انضاف فيها إلى الفلسفة والطب والنبات وعلم النفس علوم الأصول والفقه والحديث والتاريخ فضلا عن علوم الآلة.

فابن رشد الطبيب الفيلسوف النبائي قد خلف لنا تراثا فريدا من نوعه يمكن أن نلخصه فيما يلي :

(1) كتاب الكليات الذي توجد مخطوطة له بمكتبة مدريد عدد 132 وأخرى بمكتبة ستراسبورغ عدد 124 وقد طبعت صورة هذه المخطوطة بالعرائش عام 1939.

(2) شرح أرجوزة أو ألفية ابن سينا المعروفة بالكاتيكوم توجد نسخ منها في خزانة القرويين عدد 342 والأزهر 475 ودار الكتب المصرية (1239) طب) والمكتبة الحسنية بالرباط (أعداد 2090 - 2432 - 3825).

(3) شرح كتاب الحيات (الاسكوريال 879).

(4) مقالة في الترياق (الاسكوريال 879).

(5) مقالة في المزاج (الاسكوريال 879).

(6) جملة من الأدوية المفردة (الفاتكان 357).

(7) رسالة في التفحص عن أسباب طول العمر وقصره.

(8) شفاء السقام ومبرئ الآلام (المكتبة التيمورية 109 طب).

(9) تهافت التهافت الذي رد به على تهافت الفلاسفة للغزالي. طبعة القاهرة 1303 وطبعة بيروت 1930.

(10) الخاص المحصوص (Yeni 1179).

(11) رسالة في إثبات أقاويل المفسرين في علم النفس المطبقة لما قاله في العلم الطبيعي.

(12) رسالة في النبات 1888 (éd. Teubner).

(13) تلخيص كتب أرسطو الأربعة (المقولات والقضايا والقياس والبرهان) - القاهرة 52 ر. VI.

(14) كتاب فصل المقال في الموافقة وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال.

(15) كتاب فلسفة الفاضل (القاهرة 1313).

ولعل «فلسفة الفاضل» هذه قد واكبت نظرية (المدينة الفاضلة) للفارابي وكذلك (الجمهورية) لأفلاطون التي شحنها بمثاليات جماعية يمكن وصفها بالشيوعية، في حين ركز ابن رشد فضيلة المجتمع على العدالة الاجتماعية التي حللنا أبعادها في كتابين اثنين :

(L'Islam dans ses sources) - (La Pensée islamique et le monde moderne)

على أن تأثير أفلاطون على ابن رشد غير خاف لأنه تأثر بالفارابي الذي اعتبر المعلق على فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو إلا أن انصياح ابن رشد للفكر الإسلامي قد كيف نظريته في المعرفة والمثاليات والماورائيات وغيرها تكييفاً عميقاً «على ضوء القرآن» - كما يقول «لوبوتي لاروس» المصور.

فقد سبق الفكر الإسلامي النظرية الماركسية منذ أربعة عشر قرناً في خصوص مبادئه الثلاثة وهي :

- الحد الأدنى (Minimum vital)

والتسوية الطبقية (nivellement des classes)

والمبدأ الماركسي الأساسي الذي عبر عنه (كارل ماركس) في كتابه Capital - Travail فهناك أحاديث أربعة مسجلة في كتب الصحاح طوال هذه المدة وهي : «أنا خصم من لم يؤد أجرة الأجير قبل أن يجف عرقه» و«من أكل أجرة الأجير حبط عمله ستين عاماً» ولو صلى وحج وصام وإن في المال لحقاً سوى الزكاة، وقول عمر بن الخطاب «لو استقبلت ما استدبرت لرفعت الفقراء إلى درجة الأغنياء» أما اعتبار عمل العامل هو رأس المال الحقيقي كما في كتاب (ماركس) فقد سبقه إليه ابن خلدون في مقدمته (باب الكسب رأس المال) وقد حللت هذا الفكر الإسلامي في محاضرة ألقيتها في موسكو خلال السبعينات بدعوة من أكاديمية العلوم السوفياتية ثم في المؤتمر الإسلامي المسيحي بقرطبة. أما في الفقه والأصول فهناك (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) - مكتبة الزيتونة 3202 / القرويين 1159/60 / المكتبة الحسنية بالرباط 2641/6161 وقد طبع بفاس عام 1327 والقاهرة عام 1329 - 1335 واسطامبول 1333.

وكتاب (البداية) يشهد بضلعة ابن رشد في كل من الأصول والحديث. ومعلوم أن تلميذ ابن رشد محمد الندرومي (من ندرومة قرب تلمسان) الذي ولد عام 580 هـ وكان طبيب الناصر والمنصور كان أصوليا اختصر كتاب (المستصفى) للغزالي، كما أن أبا جعفر بن هارون الترجالي طبيب يوسف بن تاشفين هو شيخ ابن رشد وتلميذ أبي بكر المعافري في علم الحديث، وقبل أن نحدد مزيدا من أبعاد الاتجاهات الجديدة في فلسفة ابن رشد نريد أن نبرز بعض مظاهر هذا التجديد في مجالات مختلفة. فابن رشد هو أول من وصف في كتابه (الكليات) بدقة (الدورة الدموية الكبرى) قبل (ويليام هارفي) وقبل ابن النفيس الذي لم يحدثنا في الحقيقة إلا عن الدورة الدموية الصغرى أي الرئوية، وقد تحدث عن هذا الاكتشاف الرشدي أطباء ومؤرخون أمثال إيرنيست رونان في كتابه «ابن رشد والرشدية».

وإذا كانت النسخ التي بين أيدينا من (الكليات) خالية من هذا الوصف الدقيق فهي ناقصة ولعل ما في النسخ الأخرى ما يفي بذلك.⁽⁷⁾

وأما (تهافت التهافت) فإنه كان تعقيبا على كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالي الذي توفي قبل ولادة ابن رشد بنحو العشرين سنة، فلم يكن الغزالي يقصد إذن إلا فلاسفة اليونان ومن نحاً نحوهم وقد كان ابن رشد أول فيلسوف على الإطلاق أخضع الفكر اليوناني إلى النقد فاعترفت له أوروبا والعالم أجمع بأنه أول معلق لأرسطو أي شارح ناقد لفلسفته فقارنتنا وتنظيراتنا بين الرجلين يجب أن تنصب قبل كل شيء على المفاهيم الرشدية النابعة لا من كتاب (تهافت التهافت) وحده بل من مجموع رسائله الفلسفية على أن هذا لا يعني أن ابن رشد لم يدافع عن صميم الفكر اليوناني في مدركه الصحيح كما يفهمه هو لا كما يتجلى في ظاهره، وقد حدا هذا الدفاع الناقد المتبصر المدرسة الميمنية إلى تبني آرائه ونقلها للأجيال اليهودية ودحض انتقادات

(7) مثل نسخة (الكليات) المدرجة ضمن كتاب (التذكرة) لابن زهر والموجودة في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ويرجع تاريخ طبعتها إلى عام 1531م.

الكنيسة وجامعة باريس، وتتعمز نظرية ابن رشد الفلسفية ببعده نظره في سبر أغوار الحقائق الكونية التي لا تدرك مغازيها إلا بالجمع بين الشريعة والحقيقة الكونية التي هي الحكمة.

فلذلك جاء كتابه «فصل المقال في الموافقة وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» كدليل على قوام ثنائية الوجود مما حدا ابن ميمون إلى الاعتقاد عليه في محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة في كتابه «دلالة الحائرين» لتحديد الأركان الثلاث عشرة للديانة وهو كتاب من ثلاثة أجزاء مكتوب أصالة باللغة العربية.

وهذا الفكر الشمولي لدى ابن رشد قد حدها إلى الاهتمام بقضايا تاريخية واجتماعية، فإليه يرجع الفضل كمؤرخ وجغرافي إلى الكشف عن العالم الجديد وراء المحيط الأطلسي كما اعترف بذلك (كريستوف كولومب - إذا صدقنا ما أورده إيرنيست رومان - من أن (كولومب) لم يشعر بوجود قارة يابسة وراء المحيط حتى قرأ كتاب (الكليات) في نسخته اللاتينية.

ولعل تصنيفه لرسالة حول (المهبط) التي كانت عاصمتها في عصره هي حاضرة (القصر الكبير) مما يؤكد اهتماماته الكونية لأن هذه المنطقة كانت منطلقاً لمغامرات بحرية منذ أن أسس الفينيقيون مدينة (ليكس) التي عرفت في العهد الروماني بـ (ليكسوس) عام 1101 قبل الميلاد، وتتصل هذه الظاهرة بحقيقة أخرى كتبت حولها عشرات المصنفات باللغتين الإنجليزية والأندلسية منذ الثلاثينات وهي أن المغاربة والفينيقيين إنطلقوا بعد أن هدم (سبيون الإفريقي) مدينة قرطاج عام 146 ق.م. فوصلوا بعد جولة في المحيط دامت ثلاث سنوات إلى تأسيس مجمع في موقع البرازيل الحالي عام 125 ق.م. كما تشهد بذلك لوحة حجرية تحمل هذا التاريخ، وقد كتبت بلغة بونية تبين أنها هي اللهجة المغربية الحالية، وهذا يعزز نظرية (كوتي) في كتابه (العصور

الغامضة في تاريخ المغرب) حول دخول العربية إلى المغرب قبل الإسلام بعدة قرون على أن عدة مجلات أمريكية أبرزت هذه الحقيقة في فترات مختلفة من تاريخ المغرب قبل ابن رشد⁽⁸⁾.

فهذه الشمولية الفذة قد طبعت المذهب الرشدي الذي انتشر بأوروبا طوال العصور الوسطى بفضل تواكب عطاءاته ومنطقية منهجه وجساره نظرياته - مما أثار موجة من الانتقادات لدى فقهاء مسلمين ورجال دين مسيحيين، ولذلك حدانا الاضطراب الذي لا حظناه لدى مؤرخين معاصرين لتلك الفترة من تاريخ المغرب والأندلس - إلى الشك في كثير من المقولات التي اضطررنا إلى العودة للنصوص من أجل التأكد من مدى صحتها، ولنضرب مثلاً لتناقض بعض النقاد في ذلك العصر بما أثير من شكوك حول ابن باجة أبي بكر محمد بن يحيى المعروف بابن الصائغ والمتوفى بفاس عام 533 هـ/1138م، وقبل عام 523 هـ أو 525 هـ (والأول هو الأرجح) مما دفع المؤرخ (مونك) إلى إنكار تلمذة ابن رشد له بحجة أن عمر ابن رشد كان 12 سنة عند وفاة ابن باجة، ولكن المهم هنا هو أن (الفتح بن خاقان) جمع بين المتناقضات عندما نسب ابن باجة في كتابه (قلائد العقيان) للتعطيل والخلال العقيدة في حين حلاه في (مطمح الأنفس) في ذكر رجال الأندلس) بالخير والدين والاستقامة⁽⁹⁾ وهذا هو نفس ما وقع لابن رشد الذي تأرجح تقاده بين مقدس ومكفر، وقد انصبت انتقادات الكنيسة عام 1260م والمجمع الكنسي الخامس للاطران عام 1513م في عهد البابا (ليون العاشر) على نظرية ابن رشد حول خلود المادة وخلود العقل الفعال، ونظرنا الخاص في هذا المجال أن فلسفة ابن رشد قد وقع انحراف غير قليل في إدراك مداها وفهمها على حقيقتها، فكانت ابن رشد كعالم ديني لا تخفى، وقد انعكست عقيدته الصحيحة على الكثير من مصنفاته إلا أنه كفيلسوف يرجع إليه الفضل في الجرأة على تحديد المفهوم الصحيح لفلسفة أرسطو خاصة في الماورائيات، وكذلك غيره من حكماء

(8) تحدثنا عنها بإسهاب في كتابنا «العربية اللغة الأم». (وهو ما زال مخطوطاً).

(9) «سلوة الأنفاس» ج 3، ص 262.

(أثينة)، خاصة فيما يتصل بعالمي المادة وما وراء المادة، أو المادة والروح وخلودهما، فقد ارتكز ابن رشد في تاويلاته الأصيلة على مبدئين أساسيين يظن الكثير من الناس أنه لم يتم الكشف عن أهم مقتضياتها ولوازمها إلا منذ أوائل القرن العشرين، وهذان المبدآن هما مبدأ النسبية الذي نادى به اينشتين المتوفى عام 1955 والمبدأ الثاني هو الربط الوثيق بين المادة والروح. ففكرة النسبية قد انطلق فيها (ابن رشد) في مناداته بقدّم العالم أي المادة الكونية من ازدواجية مفهوم القدم في شقيه : الوجود بالقوة والوجود بالفعل، فالوجود الأول أقدم من الوجود الثاني إذا استندنا إلى قاعدة النسبية على أن بعض الصوفية الذين حلّلوا المفاهيم قد قالوا بهذه النظرية⁽¹⁰⁾ بل حتى أئمة السنة لم ينكروا خلود الروح بل وخلود المادة المتبلورة في (عجب الذنب)، ومعلوم أن مبدأ النسبية مبدأ مسلّم به في الإسلام، وقد كان أساساً للاختلاف بين المعتزلة والأشاعرة في خصوص السمة النسبية للصفات البشرية التي برهنت الكشف النووية على صحتها إثر تجربة تصعيد القطعة البنت إلى القمر في سفينة فضائية وإبقاء أمها على وجه البسيطة حيث تجلت الأولى بعد التحليلات العضوية أسن من أمها وهو ما أشارت إليه الآيتان الكريمتان : ﴿وَلَا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (وهو يوم الرب) وقوله تعالى : «فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (وهو يوم المعراج)، وقد ألفت محاضرة حول النسبية في الإسلام أوائل السبعينات في قسم الفلسفة بجامعة الجزائر، على أن المناذاة بتواكب الخلودين أو القدمين النسبيين وهما خلود وقدم المادة والروح (أي العقل الفعال الذي يقصد به الروح القدس) لا يمكن أن تنطلق إلا من فكر ثاقب في مثل ثقل ابن رشد ووزنه لمشاركته في العلوم الإسلامية والعلوم الكونية والدقيقة وإن دلت هذه البادرة العلمية الجريئة على شيء فإنما تدل على مدى عمق الفكر الرشدي وبعد مداه لأنه سبق ما وصل إليه اليوم الفكر المعاصر في إبراز الصلة الوثيقة بين عنصرين كان العلماء أنفسهم

(10) فقد ذكر سيدي عبيدة الشنجيطي المتوفى عام 1284هـ في كتابه «ميزاب الرحمة» طبعة مكتبة القاهرة (1371 هـ/1951م، ص 88) ما نصه : «أما العالم من حيث إنه معلوم لله في الأول فهو قديم، وأما من حيث ظهوره بالوجود فهو حادث ياجماع، فن قال إنه قديم مطلقاً أخطأ أو حادث مطلقاً أخطأ».

قبل عصرنا هذا يرون تناقضها وتباعد لوازمها، وهما المادة والروح. فقد أبرز الأستاذ (روبيرلينسن) في كتابه «روحانية المادة» فكرة التعارض الكلاسيكية بين الروح والمادة مؤكداً أن هذه النظرية أصبحت مهزولة مهزوزة لأن الأطروحة العلمية الجديدة تعرف الزمن كمظهر للحركة لا للمادة على أن هذه المادة نفسها ليست في نظر الفكر الجديد سوى حركة وهو ما يبرز الوحدة الحركية للعالم والوصلة العميقة بين الفيزياء والأحياء من جهة، والسيكولوجية من جهة أخرى، ويكون (الإلكترون) في ذلك هو الواسطة والرسول الواصل بين قطبي العالم وهما العنصر الرياضي من جهة، والعنصر النفساني والروحاني من جهة أخرى، وهو ما أسموه بروحانية أو نفسانية الإلكترون (Psychisme de l'électron).

ولعل هذه الظاهرة تتجلى طبياً في العلاقة السببية بين الأمراض السيكلولوجية والأمراض العضوية، وتظل الرياضيات في هذا المسار هي العامل الأساسي الذي ينطلق منه الفكر العلمي المعاصر، أي أن هذه الرياضيات مزدوجة الطابع فهي رياضيات كونية ورياضيات ما ورائية، وقد أصبح العلماء يتجهون إلى هذه الأخيرة معرفين إياها بأنها المنطلق لعلم الغد أي علوم المستقبل، فقد انعقد مؤتمر فيزيائي عالمي في (بيكين) عام 1966 للنظر في وجود أشكال لطيفة للطاقة، فتوصل إلى ما يستوجب اليقين بوضوح الدليل على ظهور بنية سيكلولوجية عليا للعالم.